الرفيق الشهيد "سمير الاسمر":

كان قائداً حقيقياً ينفذ مهامه دون ثغرات

كان رمزاً للعنف الثوري ورمزاً للعاشق الحنون، عبر احد عشر عاماً

كان واثقاً من ان الموت لن يغلبه الا غدراً

رفيقنا الذي مضى تاركا لنا تجربة رائدة تضيء عقولنا وافئدتنا ، كيف نقدمه الى قرائنا واصدقائنا ورفاقنا في مختلف المواقع ؟

هذا الرفيق ما يزال تجربة حية في مسار جبهتنا ، وعنوانا عريضا في استراتيجيتها .. كيف يمكن فصله عن جسم الجبهة التي عشقها حتى اذاب جسده وعقله وعاطفته في جسدها .. كيف نقطع جزءا من الجسد النابض ابدا ونقدمه على صفحات مجلتنا .

لقد اخترق « سمير الاسمر » الجلد والشحم وغاص عميقا في عظم تنظيمنا المتقدم بخطى ثابتة على طريق فلسطين .

ان تجربة رفيقنا لا تزال تكتمل وتتسع وتضرب في عمق العملية الثورية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتقديم تفاصيل هذه التجربة يتعذر الا بعد الانتصار بتحرير كل مدينة وقرية في فلسطين المحتلة . لذلك نقتصر هنا على مقدمة مفيدة ، تلقي الضوء هادئا متواضعا على آثار الرفيق الشهيد « سمير » فوق جلد التنظيم وليس في شحمه ودمه وعظامه .. على أن نقدم في اقرب فرصة تتاح لنا مقالا مفصلا اكثر يتناول ما يمكن تناوله في هذه المرحلة من تجربة رفيقنا القائد .

■■ بداية التجربة

في القدس وفي عام ١٩٤٩ ولد « سمير الاسمر » بعد عام من قيام الكيان الصهيوني . تمخضت الارض الفلسطينية الجريحة عن فارس ثوري كردة فعل على التواطؤ العالمي والعربي الرسمي مع الغزاة الاستيطانيين واطلقت من رحمها « سمير الاسمر » .. الذي نما وترعرع في تلك الاجواء والازمنة السوداء وهجر الى الاردن « فاستوطن » حي « المصارعة » في عمان .. وفتح عينيه جيدا ليكتشف طريق الخلاص والعودة .. معلنا انتسابه الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وما برح موقعه الثوري حتى استشهاده اغتيالا ! .. لقد انتسب الى الجبهة في عام ١٩٦٧ واستشهد في عام ١٩٧٨ . اذن بدأ مقاتلا في غور الاردن .. ثم عمل في المجال الخارجي ، فاشترك في عام ١٩٧٠ وقاد عملية خطف طائرة « بانام » الجامبوجيت الاميركية الى بيروت ثم القاهرة حيث أتم نسفها هناك .. وفي طريقه الى حيث أراد له « الرسميون » ان يحاكم ، حطت طائرة تقله في دمشق ، فتمكن من التحايل على معتقليه والهروب من مطار دمشق الدولي .

وبعد ان امضى ثلاث سنوات في المجال الخارجي اشترك خلالها في عدد كبير من العمليات الخاصة الخارجية ، انتقل في عام ١٩٧٣ الى العمل العسكري في لبنان ، وكانت اولى مهماته هنا تدريب رفاقه على هندسه المتفجرات والتخريب ، والتكتيك والاستطلاع .. وكان مبرزا جدا في هذه المجالات .. كما قاد ونفذ بنفسه مهمات خاصة .

■■ « سمير » في الحرب اللبنانية

رفيقنا كان يعرف الجنوب شبرا شبرا ، وكانت الاشجار الجنوبية تحني له هاماتها حبا وتلامس بأوراقها المغسولة بالندى وجنتيه . لقد مثل فعلا شخصية القائد على صعيد حرب العصابات خاصة في معارك الجبل ، وثم الهجوم الصهيوني الاخير على الجنوب ـ هكذا يقول رفاقه .. ويقولون ايضا: كان كادرا كفوءا ، منضبطا ، مرحا ، لديه القدرة على السيطرة والقيادة في احرج المواقف .. يتقن عمله بدقة دون ثغرات .. وكانت مرتبته التنظيمية : عضو قيادة منطقة في كتيبة الشهيد القائد « ابو أمل » الذي استشهد في « تل الزعتر » .

كان آمر محور « مارون مسك » في الشياح ، وهو اكثر المحاور كثافة سكانية ، وتعرضا للقصف والقنص يوميا من قبل الانعزاليين .. وبحكم كثافة السكان ، كان اكثر المحاور تعرضا لسقوط الضحايا . رفيقنا حارب شتى انواع الطائفية .. والخطف على اساسها ، وقد استطاع اكثر من مرة اعادة المخطوفين الابرياء من الطوائف الاخرى في زهاء الساعة او اكثر بقليل .

اثناء الحرب درب عددا كبيرا من عناصر الحركة الوطنية اللبنانية : من القوميين السوريين ، والحزب التقدمي الاشتراكي ، والناصريين ، وحزب العمل الاشتراكي العربي .

تنقل بجسده الرمحي الاسمر بين مواقع القتال ، مدربا للمقاتلين والمليشيات الوطنية ، ومنظما واعيا للجماهير الفقيرة .. ومساعدا

حنونا لكل من احتاج مساعدته وحنانه ، ينشر الشرارات في حقول الزؤان فتصبح رمادا ، ويبذر اللهب في شقوق الارض البكر فتنبت ازهار الدم والنار صاهلة تلوح لشمس الانتصار .

عادة يكون المدربون العسكريون بعيدين عن قلوب المقاتلين وعواطفهم ، بحكم ضرورات التدريب التي تقتضي من المدرب ان يكون قاسيا حاسما .. ورغم قسوة « سمير » وحسمه الشديدين كان محبوبا جدا من كل مقاتل تدرب على يديه .. انها الجوانب المضيئة الدافئة التي يتفرد بها رفيقنا عن سواه من المدربين .. هذا هو التفسير الوحيد امامنا .. كان دقيقا وقاسيا وصارما .. ولكنه ايضا كان واعيا ومحبا وحنونا .. كان يجمع كل ما يجب توفره من اخلاق ومزايا في المناضل الثوري .. هذا هو السر الحقيقي .. لقد كتب لزوجته مرة :

« عزيزتي .. الميلاد = الحياة . الحياة = الحب + الكبرياء . الحب = اتباع العاطفة . الكبرياء = اتباع العقل . لكن السعادة = الحب + الكبرياء مجتمعين . هذا ما اتمنى ان تكوني دائما ، كل عام وانت بخير . وحياة سعيدة ومديدة » . هكذا كان رفيقنا دقيقا حتى في رسائله العاطفية الى زوجته .

■■ الانسان اثناء المعركة

الرفيق الشهيد « الاسمر » الذي ناضل في عدن والاردن وافريقيا وظفار ، اعتقل في الاردن وحاولت مخابرات الملك الهاشمي تجنيده لصالحها ، فراوغها ، واحتال عليها ، ونقل الى تنظيمه جزءا كبيرا من اسرار اجهزة مخابرات النظام الاردني افاد الجبهة كثيرا ووجه الى مخابرات « الحسين » ضربات موجعة .. كما انه سجن في القاهرة وهرب من مطار دمشق كما ذكرنا انفا .. كما ان زوجته اعتقلت من قبل اجهزة نظام عربي فطارد « سمير » من كان وراء اعتقال رفيقته وزوجته وحبيبته حتى لقنه درسا لم ولن ينساه بالتأكيد .

من جهة ثانية اهتم الرفيق « سمير » ببناء المستوصفات الطبية في الاحياء الفقيرة في لبنان .. كما أعان وساعد بكل طاقته في تأمين التموين والغذاء للمواطنين اللبنانيين قبل الفلسطينيين اثناء الحرب .

كان من خلال ممارساته الثورية المستمرة وتحركه الخلاق بين الجماهير ينقل الى المواطنين في كل مكان تواجد فيه صورة مشرقة عن تنظيمه ..

كان لا يكره احدا ، حتى الذين كانوا اليه يسيؤون كان رؤوفا بهم ، يحاول حل خلافاته معهم باستيعاب نقاط الخلاف وحلها .. بينما خلافه مع الاعداء كان يحله بالعنف الثوري ، بالبندقية والقنبلة وقذيفة الار بي . جي .

■■ مات الطفل في نهاية الطريق !

في قرية « كفرا » الجنوبية قرب « صديقين » كان « سمير الاسمر » ورفاقه يقاتلون الاعداء ، وتقدم العدو الى الموقع الذي يتواجد فيه الرفاق .. واحتل العدو « صديقين » ، اثناء ذلك وقعت قذيفة قرب امرأة جنوبية فقتلت المرأة على الفور بشظية ، وسقط الطفل على الارض جريحا .. هرع « سمير » الى الطفل مهرولا ، تاركا رفاقه يقاتلون .. حمل الطفل ثم وزع الرفاق على المواقع واخذ برفقته احد الرفاق وسائق السيارة ، ونقلا الطفل الى مستشفى الهلال الاحمر في صور .

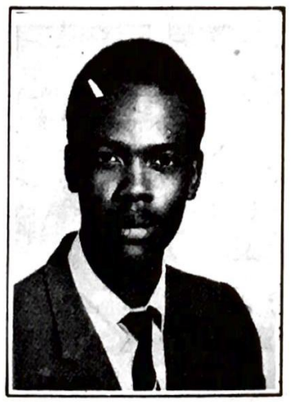

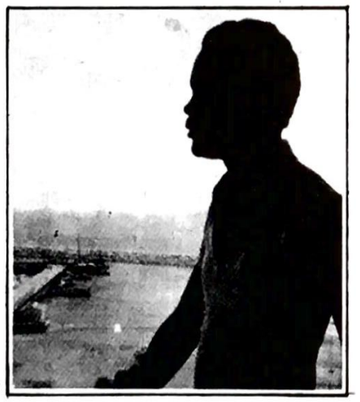

يتأمل البحر

اثناء الطريق الى صور ، كان الطفل شغل الرفاق الشاغل يراقبون خفقان قلبه في صدره الصغير ، وشهيقه وزفيره .. وما أن وصلوا الى « صور » حتى فارق الطفل الحياة .. فعاد « سمير » ورفيقاه الى قواعدهم في « كفرا » يتابعون قتال العدو الى جانب رفاقهم .

واثناء معارك الجنوب انقطع اتصال « سمير الاسمر » بالقيادة .. كان يقاتل مع رفاقه خلف خطوط العدو . وكان الرفاق ينتظرون عودته بقلق .. لكن مبادرته ضمن الاوضاع غير المتوقعة والمخطط لها مسبقا ، وسيطرته على الامور الطارئة بسرعة ودقة وغيرها من الصفات التي يتحلى بها القائد الحقيقي مكنته من العودة برفاقه سالمين .. كان « سمير » يقول دائما : المجموعة افضل من فرد واحد ، ليس مهما ان اموت في سبيل أن ينجو الرفاق . وكان دائما على رأس مجموعاته الاقتحامية في معارك الشياح .

■■ زوجته رفيقته

كانت زوجته الفلسطينية ـ من حيفا ـ ، والتي ولدت في لبنان من عائلة متوسطة الدخل المعيشي .. كانت على رأس مهامها باعتبارها رفيقة في الجبهة ، ومفرزة للعمل في « اللجنة الاجتماعية » حينما كان يعالج جراحه التي اصيب بها في الشياح .

قال لها في اطار الحديث العام مع الرفيقات : مثلا حينما يمر يوم ولا تزورينني فيه .. اشعر بالفراغ والوحشة .

قالت له : ماذا تقصد .. ماذا قلت ؟ لو تعيد كلماتك ..

قال لها : ما أقوله ، لا اعيده مرة اخرى ..

فأجابت : نحن هنا نقوم بواجبنا كرفيقات .. ونزور جميع الرفاق الجرحى .. ضمن مهامنا في التنظيم .

ومنذ ذلك الوقت ـ قالت زوجته ـ لم يمض يوم الا واقوم بزيارته .. ونتحدث .

هذا جرى في اوائل عام ١٩٧٦ .. ولم يمض شهر على تفائمها حتى صرح لها « سمير » :

ـ « انا فدائي .. دمي على كفي .. غير مستقر .. ومع ذلك اقترح ان يرتبط واحدا بالاخر .. أن نتزوج » . بالطبع وافقت الرفيقة . وتزوج الرفيق رفيقته ، بعد سبعة اشهر من تعارفهما .

قال لها بعد أن حقق هدفه هذا : « انا عسكري ، استطلع الهدف ، واحدده ، وأهاجم » هكذا بدأ مغازلة زوجته التي كانت تحبه كما يحبه كل الرفاق والاصدقاء فقط (...) في البداية .

■■ محطة الرفاق

المرح الصاخب ، والاخلاق العربية الاصيلة في الضيافة .. ما أن تدخل بيت « سمير الاسمر » حتى تشعر بأنك اصبحت محور اهتمام البيت .. كانت صداقاته واسعة في التنظيم وخارج التنظيم .. قليلون اولئك الذين لا يعرفون « سمير الاسمر » . لكن هذه الصداقات جميعها كانت مسخرة في خدمة التنظيم .. كان كل صداقة خارج التنظيم هي واجب ضمن مهمات العمل الجماهيري .. واصدقاؤه الوحيدون موجودون في داخل الجبهة .. حتى حبه لزوجه استخدمه مرات عديدة في مهام تنظيمية ، وصرح لها مرات : ارتباطنا وزواجنا وحبنا يقف وراءه عامل اساسي هو وجودنا معا في الجبهة .

كان رفيقنا يتقن فن الرقص اتقانه لفن القتال . من يتعرف على حياته الخاصة يدرك انه حنون وعطوف لدرجة عدم تصوره مقاتلا عنيفا شرسا . كان في البيت يهتم بترتيب الاشياء وأناقتها .. ويهتم بوالدة زوجته اهتماما خاصا لدرجة انها تحبه اكثر من ابنائها « الحقيقيين » .